الباب الأول

التعريف والسكان في الجبل

أ- التعريف.

ب- آثار الجبل والسكان القدامى.

ج- بدايات بني معروف في الجبل.

obeikandl.com

أ ـ التعريف

جبل العرب "جبل حوران"[1]

مجموعة من الهضاب تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية لسوريا السياسية يقول فيها الشاعر زيد الأطرش:

من هضاب شاد أهلنا فوق منا ... موطنا للعز موفور الكرامة

من جبل حوران بيعرب تكنا ... يا المشكك دونك وشاح الوساما

وهي تشكل درعاً يصدُّ عن الوطن غارات البدو من الجهة الشرقية والجنوبية وهجمات الغزاة من الغرب لذلك يضيف الشاعر:

وربوعنا درع الوطن من يوم كنا ... يقودنا سلطان نشفي له مرامه

السفح الغربي منها سهول خصبة تتصل بسهل حوران، والقسم الشرقي نجاد وهضاب تطل على بادية العراق والأردن وبادية الشام، أشهر القمم فيها "القليب ١٧٢٤ متراً" القينة وتل "جفنة ١٧٢٧م "وتل" المسيح قرب شهبا ١٧٤٩م "مساحة الجبل ٨٠٠٠ كم٢ تمتد من الصورة واللجاة[2] البركانية في الشمال بطول ١٠٠ كم تقريباً حتى خربة عواد جنوباً، ومن الثعلة غرباً حتى الصفاة شرقاً بطول ٨٠ كم، وقد ورد ذكر

---

[1]. حوران كلمة من حورنا معناها الكهف أو المغارة بالسريانية وفي الجبل الكثير من الكهوف والمغاور وقد ورد في كتاب المقريزي : حوران قرية من نواحي دمشق، قرية أصحاب الأخدود قيل أنها نجران وهي الآن قرية كبيرة في الشمال الغربي للجبل على حدود اللجاة. فيها آثار كنيسة عليها قبة يقال لها أم الخدود وبرج شاهق درجه من الداخل يسمى المأذنة.

[2] اللجاة: من كلمة لجأ ومعناها الملجأ تغطيها صبات بازلتية من البراكين التي ثارت في الزمن القديم تكثر فيها الوهاد والكهوف الصخرية التي تشكل تحصينات طبيعية متميزة وقد أطلق عليه الفرنسيون قلعة الله وقد ابتلعت الكثير من الجيوش والحملات الغازية من جيش إبراهيم باشا المصري حتى الحملات التركية ثم الفرنسية، تقع في الجانب الغربي للجبل من الجهة الشمالية طولها ثلاثون كيلومتراً وعرضها عشرون تقريباً.

الجبل في التوراة باسم "باشان **Bachan**" وهي كلمة تعني الخصب وأطلق عليه الرومان اسم "أورانتيد" أي امتداد حوران، وأطلق عليه العرب اسم جبل الريان إذ قال فيه جرير:

يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا

نشأت التربة فيه من تفتت الصخور البركانية فهي تربة خصبة تكثر فيها زراعة الحبوب بأنواعها وأشجار الفاكهة خاصة شجرة الكرمة "العنب" وقد اشتهر الجبل بزراعتها بشكل خاص وتعددت فيه أنواعها منذ القدم "أنواع جيدة ونكهة فريدة" وقد شوهدت صور شجيرات الكرمة منقوشة على أكثر آثاره البازلتية خاصة في قنوات. وقد اشتهرت حديثاً بساتين التفاح بأنوعه المختلفة أيضاً مع الكرز "حب الملوك" في ظهر الجبل.

أما سفح الجبل الغربي الذي يعتبر امتداداً لسهول حوران فقد ازدادت فيه أشجار الزيتون والتين بالإضافة لزراعة الحبوب المختلفة.

أراضي الجبل تغطيها المنتجات البركانية بشكل عام لتجعل بعضها على شكل صبّات بازلتية واسعة تكثر فيها الكهوف والمغاور والحفر كما في منطقة اللجاة والصفاة[1]، وبعضها الآخر بقع سهلية ذات تربة حمراء خصبة نتجت من تفتت البازلت تكثر فيها أكاسيد الحديد الحمراء " حجر الدم هيماتيت" يفصل بين هذه البقع أكوام الحجارة البركانية "الرجوم" كما ينتشر فوق أرضها قنابل بركانية بازلتية من حجارة سوداء تعرقل آليات الأراضي الزراعية إذا لم يحصل تعزيلها ونقلها من الأرض. وقد كانت جميع القرى والمدن قبل خمسينات هذا القرن مبنية بالحجارة البازلتية المتوفرة من الصخور التي نثرتها فوهات البراكين في الفترة التي سبقت العصور التاريخية، حتى أن جميع الآثار والمعابد والأبراج كانت من الصخور البازلتية

---

[1] الصفاة: تجمعات من الصبات البركانية التي سالت من الجبل في العصور القديمة "العصر الجيولوجي الرابع" تقع شرق الجبل من الناحية الشمالية توازي اللجاة يفصل بينهما وادي وسهل اللوى. سكنتها قبائل عربية قديمة يظن أنها من أفخاذ ثمود.

أما بعد فقد ازدادت الأبنية الحديثة المشادة بالأسمنت المسلح وأبيضت أكثر المدن والقرى التي أخذت تزينها الفيلات والقصور الفخمة المبنية على الطراز الحديث.

مناخ الجبل

الجبل قريب من الصحراء يتميز مناخه بهواء جاف يمنع انتشار الأوبئة وهو صحي جداً لذلك يعتبر حالياً من أفضل مناطق الاصطياف التي يصفها الأطباء لتخفيف وطأة أمراض الأجواء الرطبة كالأمراض العصبية والربو. كما تعتبر الأجواء الجافة من أهم العوامل التي تؤدي إلى صفاء الذهن والراحة والهدوء في نفوس السكان.

الأمطار تتساقط هنا في فصلي الشتاء والربيع وقد تغطي الثلوج أحيانا الروابي والقمم لعدة أيام في الفصل الأول. وغالباً ما تكون كمية المياه كافية للزراعة البعلية والأشجار. وقد تسيل المياه الفائضة لعدة أيام في الأودية التي تتجه غرباً نحو نهر الشريعة أو شرقاً نحو البادية.

الصناعات

أهمها السجاد والبسط وصناعة الخمور من الكرمة. وقد تصنع النساء أطباق القش والقفف المزخرفة بالأشكال والألوان الجميلة الزاهية التي تشبه المزهريات والقطع الفنية الساحرة، وقد ازدهرت في بعض قرى الجبل قديماً صناعة حجر الطاحون "الرحى" من الحجارة البازلتية القاسية، كما أن بعض القرى الواقعة في تخوم اللجاة وبلدة قنوات اشتهرت في السابق بصناعة البارود الأسود الذي كان يصدر بالأطنان إلى دمشق والقدس ويستخدم في البنادق والألغام والمدافع البدائية.

ب- الآثار والسكان القدامى

لقد وجدت حول الينابيع في الجبل بعض الأدوات الصوانية المنحوتة التي كان يستخدمها إنسان ما قبل التاريخ. ويبدو تاريخ الجبل قبل الأنباط والسلوقيين غامضاً نسبياً. فقد سكن الصفويون العرب المنحدر الشرقي للجبل منذ القرن الأول للميلاد وكانت لغتهم وسطاً بين اللغة الفينيقية ولغة القرآن[1] وقد تركوا رسوماً وكتابات كثيرة خاصة في قصر النمّاره بالصفاة شرق ا لجبل.

ثم جاء العرب الأنباط، الذين سكنوا شرقي الأردن منذ القرن السادس قبل الميلاد فدخلوا الجبل بعد أن تغلبوا على السلوقيين خلفاء الأسكندر في معركة "موتانا" ("متان" قرية شرقي صلخد) سنة ٨٨ ق.م وقد قتلوا ملكهم ا لثالث عشر انطيوخوس وقد ازدهرت في أيامهم قنوات والسويداء وصلخد كمراكز تجارية وامتدت سلطتهم حتى دمشق وسهل البقاع[2] . وقد عثر على هيكل نبطي للإله ذي الشراة[3] غرب تل القليب وفي "سيع" مذبح لهذا الإله ومعبد في السويداء. وهذه الآلهة النبطية كانت معروفة عند عرب الجاهلية في شبه الجزيرة العربية . أما الرومان فقد عقدوا معاهدة حسن جوار سنة ٦٥٤ق.م بين سكورس الحاكم الروماني والحارث ملك الأنباط، استمرت حتى وفاة الملك رئبال الثاني في مطلع القرن الثاني للميلاد حيث استغل الرومان ضعف الأنباط بعد وفاة رئبال فهاجموا بلادهم وألحقوها بإمبراطوريتهم الرومانية سنة ١٠٦ميلادية وأطلقوا عليها اسم الولاية العربية[4] وكانت عاصمتها بصرى. وقد بنى الرومان بعد ذلك في الولاية عدداً من الحصون والمراكز العسكرية لحفظ الأمن وشقوا كثيراً من الطرقات "دمشق إلى السويداء وقنوات عبر اللجاة وشهبا، السويداء عرى صلخد متان ← العراق" وقد ترك الرومان في الجبل كثيراً من الآثار كالأبراج والمسارح والحمامات والفنادق والقصور ـ قبل المعبد الشمالي في قرية عتيل الذي بناه الأمبراطور "كاراكالا" ذو الأصل

---

[1] ـ المستشرق هاليفي.

[2] محافظة السويداء ص ٧.

[3] ذي الشراة: من آلهة العرب في الجاهلية .

[4] تاريخ العرب قبل الإسلام .د.جواد علي ص ٣٨٤م.

القرطاجي العربي وآثار السدود والبرك الكبيرة لجمع مياه الأمطار والأقنية الفخارية التي تجري فيها المياه إلى المدن. وأهم آثار الجبل في قنوات وشهبا.

ففي قنوات عشتاروت أو **OKNATA** هيكل الشمس الذي بناه هيرودوس الأول "أغريبا" فيه ٣١ عموداً تنتهي بتيجان كورنثية. ومعبد الإله زوس بالقرب من خزان المياه. ومسرح فيه مقاعد منحوتة بالصخر وفيها شوارع مبلطة وبقايا برج يسمى حالياً النبي أيوب. وجنوب قنوات على بعد ألفي متر مرتفع تقع عليه خربة "سيع" التي تحوي بقايا قصور متهدمة وآثاراً قيمة نقل بعضها إلى متحف اللوفر في باريز والمتحف الوطني بدمشق.

وآخر المكتشفات في الستينات في شهبا بقايا قصر روماني أرض الغرف فيه لوحات فسيفساء مزركشة كأنها قطع السجاد تمثل مواضيع اجتماعية هادفة احتفظت بشكلها ومكانها وقد أقيم عليها متحف شهبا الجديد الذي يحوي ثروة قيمة من الآثار الرومانية. وفي نجران برج شاهق يدعى المأذنة درجه من الداخل في أعلاه بقايا غرفة تهدمت بقنابل المدفع الفرنسي من بصر الحرير أيام الثورة السورية الكبرى.

وفي القرن الرابع للميلاد ضعف نفوذ الحكم الروماني في المنطقة فتركوا الحكم للأمراء العرب من الغساسنة بعد أن نظمت علاقاتهم بقناصل روما[1].

وقد أقام الغساسنة خط دفاع جنوب شرقي الجبل فيه عدة حصون منها القصر الأبيض والنمّاره ودير الكهف والقلعة الزرقاء، وفي القصر الأبيض نقوش جميلة وصور طيور وخيول وأسود وفهود حتى السمك[2] كما بنوا بعض القصور في السويداء والقريا، وشيد الغساسنة الكثير من القصور وأقواس النصر والحمامات العمومية والمنازل والمسارح .....

وفي عهد الحارث بن جبلة تم انتصار الغساسنة على الفرس سنة ٥٢٨م فعين رئيساً على جميع العرب في سوريا وقد خلفه ابنه المنذر الذي نازع البيزنطيين

---

[1] حوران "سليمان عبد الله المقداد ص ٢٣.

[2] العرب قبل الإسلام جورجي زيدان.

فهاجموه وتغلبوا عليه ونفوه إلى صقلية. في سنة ٦٠٨م عاد للفرس انتصارهم فبسطوا نفوذهم على المنطقة حتى انتصر عليهم هرقل ملك الروم سنة ٦٢٩م فنصب جبلة ابن الأيهم ملكاً في المنطقة. وباعتبار الغساسنة من العرب القحطانيين انضم الكثير منهم إلى العرب المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام في القرن السابع للميلاد في عهد عمر بن الخطاب الذي أقر تنصيب مالك بن الحارث "من الشهابيين" أميراً على حوران والجبل فأقام مع عشيرته في الشهبا من قرى حوران وكان بالمرصاد لبني غسان من النصارى حيث منع عنهم حوران بعد أن نازلهم بمواقع حربية متعددة[1] ويرى الكابتين "بورون" أن اسم الشهابيين مشتق من شهبا التي سكنوها خمسة قرون. ثم خضع الجبل للدول التي تعاقبت على الحكم في سورية منذ عهد الأمويين والعباسيين.

فالأمير قاسم الشهابي حارب الروم بالقسطنطينية سنة ٧٣٧ وقد خلفه ولده الأمير شهاب الذي حارب الروم عند خليج القسطنطينية سنة ٧٨٠ ومن أحفاده الأمير عامر والأمير سعيد الذي قاتل القرامطة سنة ٨٩٥ وردهم عن حوران[2] وقد استطاع سكان الجبل أن يصدوا الحملات الصليبية بعد أن تمركز فيه الأيوبيون وبنوا فيه القلاع والحصون، كما في صلخد حيث زادوا في تحصين قلعتها النبطية الأصل.

وفي أعلى مئذنة صلخد الحالية اسم أول سلاطين المماليك عز الدين أيبك، وكان لصلخد شأن في الإسلام خاصة في زمن صلاح الدين إذ كانت قاعدة ملك عز الدين ابن أسامة. كما كانت فيما بعد قاعدة لجبل بني هلال نسبة إلى سكانه[3].

ومن الجدير بالذكر أن الأمير منقذ الشهابي وأقرباءه من الأمراء وقفوا إلى جانب صلاح الدين وحاربوا الإفرنج معه. وقد رحل الأمير منقذ وبعض وجوه عشيرته من حوران لينزلوا في وادي التيم وحاربوا الإفرنج بمعارك متعددة.

---

[1] ذخائر لبنان ص ٢٤٣ . إبراهيم بيك الأسود.

[2] ذخائر لبنان الأسود ص ٢٤٣.

[3] بنو معروف في حوران النجار ص ٧١.

أما المتحف الحديث بالسويداء المبني بالحجر البازلتي على الطريقة الرومانية فيحوي ثروة هائلة من الآثار النبطية والرومانية، كما أن الحفريات الحديثة للشارع المحوري في مدينة السويداء قد كشف عن ثروة أثرية كبيرة ما زالت تتكشف وتترتب بالتدريج من قبل مديرية الآثار.

هذا وإن كثيراً من القرى والقصور التي كانت عامرة ومزدهرة في جبل العرب في عهد الأنباط والرومان وصدر الإسلام قد أقفرت من السكان وجفت فيها الحضارة والعمران بين القرنين العاشر والتاسع عشر حيث لم يتجاوز عدد السكان ١٠ آلاف نسمة حسب تقدير الأستاذ محمد كرد علي وحسب تقدير الرحالة "لويس بركهاردت" الذي زار المنطقة سنة ١٨١٠ م وتُعلل هجرة السكان بسبب الجفاف والغزوات المتكررة على المنطقة من البادية حتى النصف الثاني للقرن التاسع عشر عندما أصبحت السويداء إحدى الأقضية الستة التي كانت تابعة لمتصرفية حوران وجبل العرب ومركزها المزيريب.

بدايات سكن بني معروف في الجبل

يجمع أكثر المؤرخين والكتاب[1] أن أكثر بني معروف عرب ينتمون للقبائل العربية كاللخمين والتنوخيين التي هاجرت من الجزيرة العربية واليمن إلى العراق وانخرطت بجيش خالد بن الوليد الذي سار إلى سوريا وفلسطين لنجدة الجيوش العربية فيها وتحريرها من الأجانب "الرومان" وقد استقرت بعد التحرير بجهات حلب ومعرة النعمان، ثم اختارها الخليفة المنصور في العهد العباسي لحماية الثغور فتقدم أكثرها ليستقر في جبل لبنان ووادي التيم وإقليم البلان وجبال فلسطين. وعندما اشتدت الخلافات بين القيسية واليمنية من العشائر في لبنان وازدادت الحروب بينهم في القرن السابع عشر الميلادي هاجر الكثير من الأسر المغلوبة إلى جبل حوران الذي كان ممراً لقبائل البدو تقيظ فيه بمواشيها، فتتلف أشجاره وتتمتع بخيراته دون العناية بتعمير قراه التي بقيت مهجورة حتى سنة ١٦٨٥ حيث قدم الأمير علم الدين المعني على رأس قوة من المحاربين الأشداء تبلغ حوالي مائتي رجل ترافقهم النساء

---

[1] بركهاردت - النجار - الزغير - والأمير شكيب أرسلان.

والأطفال واستوطنوا القرى المجاورة لمنطقة اللجاة الوعرة، واتخذ الأمير المعني قصر مقري الوحش في نجران[1] مسكناً له وحصناً يقيه من هجوم الأعداء. وفي سنة ١٦٩١م قدم الحمدانيون من قرية "كفرة" في لبنان واستوطنوا قرية بريكة وريمة اللحف، واكتشف حمدان الحمدان من المال في جوف حنت[2] القصر في ريمة اللحف، وكان هذا المبلغ الكبير نسبياً سبباً لغناه وسيادته في المنطقة، وبعد عودة الأمير المعني إلى لبنان انتقل حمدان إلى نجران وسكن مكانه[3] وفي سنة ١٦٩٦ توسع بنو معروف بعدما تغلبوا على قبائل ولد علي فاستوطنوا اللجاة ووادي اللوا حتى وصلوا إلى الهيت والهيات، ثم ارتحل الحمدانيون إلى السويداء بعد قدوم أقاربهم المهاجرين من لبنان مثل خليل الحمدان والمهاجرين من بلاد صفد واستولوا على السويداء من شيوخها بني سويدان الذين نزحوا إلى معربه وغصم[4].

في سنة ١٧١١م بعد معركة عين داره في لبنان ازداد عدد بني معروف الوافدين إلى الجبل وقاموا بترميم القرى المهجورة وتربية الماشية وتحويل الأراضي المهملة إلى أرض زراعية، مما ساعد على توسعهم في المنطقة، وقد رافق هذا التوسع صدامات مع الجوار من البدو وسكان حوران الذين اعتبروا بني معروف دخلاء على المنطقة، وخلال قرن من الزمن، انتهت السيطرة لبني معروف على هذا النجد الخصيب فأصبحوا أسياد الجبل وولاة أمر جميع الأقوام النازلة فيه، ولكن المعارك لم تنقطع مع الجوار ومع الدولة العثمانية التي كانت تحاول باستمرار فرض سيطرتها على الجبل.

وما زال لأكثر عائلات الجبل أصول وأقارب في لبنان وفي منطقة حلب للقادمين منها "الحلبية" وفي منطقة صفد للقادمين من فلسطين "الصفدية والحرافشة" من صفد وحرفيش.

---

[1] هي المشهورة ببيعة نجران كانت مصيفاً للمتعبدين وكان ينذر لها المسلمون والنصارى.

[2] حنت القصر: حجر مستطيل يمتد فوق الباب مباشرة.

[3] الزغير ص ٤٠٥.

[4] الزغير ص ٤٠٦